مراثي الأبناء لدى شعراء الشام بالقرن الرابع

(أدب عربي)

د/ عبد الله رمضان
قسم الأدب والنقد
كلية اللغات – جامعة المدينة العالمية
شاه علم - ماليزيا
arharidy@gmail.com

***خلاصة*—هذا الموضوع يتناول تقدمة عن رثاء الأبناء لدى شعراء الشام في القرن الرابع الهجري.**

الكلمات المفتاحية: الشام، حلب، الرثاء، الأبناء، الصنوبري، التهامي.

I. *المقدمة*

جرح الفقد لا يلتئم في قلب كل آدمي يصاب بمصاب آدم - عليه السلام - عندما قتل قابيل هابيل حتى إن بعض المؤرخين نسب إلى أبي البشر أبيات شعر زعموا أنه قالها عند مقتل ابنه، وشعراؤنا ممن أبدعوا في رثائهم لأبنائهم وبناتهم.

II. موضوع المقالة

منذ أن قتل قابيل هابيل، وجرح الفقد لا يلتئم في قلب كل آدمي يصاب بمصاب آدم - عليه السلام - حتى إن بعض المؤرخين نسب إلى أبي البشر أبيات شعر زعموا أنه قالها عند مقتل ابنه، وكأنه يرثيه بها، ومنها:

تَغَيَّرَتِ البِلادُ وَمَنْ عَلَيهَا فَوَجْهُ الأرضِ مُغْبَرٌّ قَبِيحُ[1]

ولم تتغير تلك الفطرة التي فطر الله الناس عليها من حب الأبناء والتعلق بهم، حتى إن الرسول الكريم محمدًا - صلى الله عليه وسلم - بكى عندما كان ابنه إبراهيم في حجره وهو يجود بنفسه فقال: "إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون"[2].

هكذا كانت عاطفة حب الأبناء والتفجع عليهم مع الأنبياء والمرسلين، الذين أوتوا من الإيمان بالله والرضا بقضائه ما لم يؤته الآخرون، فما بالنا بمن هم أقل مرتبة من الأنبياء، كيف يكون تفجعهم، وكيف يكون بكاؤهم؟!

سأل رجل عبيد الله بن أبي بكرة "ما تقول في موت الوالد؟ قال: ملك حادث، قال: فموت الأخ؟ قال: قص الجناح، قال: فموت الزوج؟ قال: عرس جديد، قال: فموت الولد؟ قال: صدع في الفؤاد لا يجبر"[3]، ولأحد الشعراء:

ما عَالَجَ الحُزنَ والحَرَارَةَ أَحْشَاءِ من لم يَمُتْ لَهُ وَلَدُ[4] في الـ

ويتحدث مسكويه عن الموت فيفرق بين موت طبيعي وموت غير طبيعي، ويفسر حزن الآباء على الأبناء فيقول: "أما الموت الطبيعي فليس يحزن له أحد؛ لأنه ضروري، وإنما يجزع الإنسان منه إذا ورد في غير الوقت الذي كان ينتظره، أو بغير الحالة المحتسبة؛ ولذلك يجزع الوالد على موت ولده؛ لأن الذي احتسبه أن يموت هو قبله"[5].

وقد نُظر إلى ابن الرومي في بكائه لابنه محمد على أنه أبدع وأجاد وبلغ الذروة في التفجع على الأبناء ورثائهم، غير أننا نجد آخرين من شعراء القرن الرابع لا يقلون شأوًا في رثائهم لأبنائهم عما بلغه ابن الرومي من قبل، ومن هؤلاء أبو الحسن التهامي، وأبو بكر الصنوبري، فالصنوبري رثى ابنتيه بست قصائد وثلاث عشرة مقطوعة[6]، ولعله بذلك يكون أغزر من رثى أبناءه - في عدد القصائد والمقطوعات - بين شعراء القرن الرابع الهجري بالشام، والتهامي رثى ابنه بثلاث قصائد إحداها ثمانية وثمانون بيتًا مطلعها:

حُكمُ المَنِيَّةِ في البَرِيَّةِ جاري ما هَذِهِ الدُّنيا بِدارِ قَرارِ [7]

والثانية ثمانية وسبعون بيتًا، مطلعها:

أبا الفضلِ طالَ الليلُ أم خَانَنِي فَخُيِّلَ لي أنَّ الكَوَاكِبَ لا صَبْرِي تَسْرِي[8]

والثالثة ثلاثة عشر بيتًا، ومطلعها:

أتى الدهرُ من حيثُ لا أَتَّقِي وخَانَ مِنَ السَّبَبِ الأوثَقِ[9]

واخترت القصيدة الثانية لأنها أقرب إلى روح الرثاء؛ حيث إن العاطفة فيها مُتَّقِدَةٌ، وفيها إشارات عدة تساعد في التوثيق التاريخي لزمن وفاة ابن التهامي، وهذه الإشارات ترجح أنه مات في أواخر القرن الرابع الهجري بالرملة من أرض الشام.

يقول التهامي[10]:

---

(١)علق ابن كثير على هذين البيتين وغيرهما بقوله: "وهذا الشعر فيه نظر، وقد يكون آدم عليه السلام قال كلاما يتحزن به بلغته فألفه بعضهم إلى هذا، وفيه أقوال، والله أعلم" البداية والنهاية – ابن كثير (مكتبة المعارف- بيروت) م١ ص ٩٤-٩٥.

(٢)صحيح البخاري – تحقيق الدكتور: مصطفى ديب البغا - ط ٣ (دار ابن كثير- بيروت - ١٩٨٧م) م ١ ص ٤٣٩.

(٣)تاريخ مدينة دمشق ج٣٨ ص١٣٥.

(٤)البيت للشاعر أبي عبد الرحمن العتبي، انظر: معجم الشعراء المرزباني – تحقيق: عبد الستار أحمد فراج (الهيئة العامة لقصور الثقافة – سلسلة الذخائر، رقم ٩٣ - القاهرة – سنة ٢٠٠٣).

(٥)الهوامل والشوامل – لأبي حيان التوحيدي ومسكويه – نشر: أحمد أمين والسيد أحمد صقر (الهيئة العامة لقصور الثقافة سلسلة الذخائر، رقم ٦٨، عن طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥١م – القاهرة) ص ٢٠٧.

(٦)ديوان الصنوبري ص ٩٩، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٤٢، ٢٦٣، ٢٦٥، ٣١١، ٣٤٣، ٤٤٣، ٥١٤، ٥١٥.

(٧)ديوان أبي الحسن التهامي (مطبعة الأهرام بالإسكندرية - سنة ١٨٩٣م) ص ٢٧.

(٨)السابق ص ٤٣.

(٩)السابق ص ٥٢.

(١٠)هو أبو الحسن علي بن محمد بن فهد التهامي (سير أعلام النبلاء ٣٨١/١٧) كان من أهل تهامة وخرج إلى الشام وقدم دمشق وامتدح بها الشريف أبا عبد الله محمد بن الحسين بن النصيبي (تاريخ

مدينة دمشق ٢٢٠/٤٣، ٢٢١) ويبدو أن أكثر حياته كانت بالشام (تاريخ الأدب العربي لبروكلمان، ترجمة د. عبد الحليم النجار ٨٠/٢) وورد خبر في تاريخ مدينة دمشق أن أبا الحسن التهامي كان بالأنبار وأنشد قصيدة في مدح الشريف ابن النصيبي وتدل أبياتها على أنه قالها وهو يعتزم السفر إلى الشريف بالشام ومنها:

فإذا قَابَلَتْ محمدًا العيسُ
فقبِّل مَنَاسِمَ العِيسِ شُكْرا

من إذا شِمْتَ وَجْهَهُ بَعْدَ عُسْرٍ
قَلَبَ اللهُ ذَلِكَ العُسْرَ يُسْرا

(تاريخ مدينة دمشق ٢٢٢/٤٣) والشريف النصيبي هذا (ت ٤٠٨هـ) هو أبو عبد الله محمد بن الحسين، تولى قضاء دمشق في عهد الحاكم بأمر الله ـ وقد كان له حكم مصر وأكثر الشام ـ وذلك سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة (تاريخ مدينة دمشق ٣٤٤/٥٢) وأرجح أن يكون التهامي انتقل إلى الشام قبل أن يلي الشريف النصيبي القضاء حيث لم يرد له في مدحه الذي أعده له ما يدل على أنه قاض.
وكذلك ورد أن التهامي كان امتدح جماعة من آل الجَراح الطائيين منهم المفرج بن دغفل وابناه (تاريخ مدينة دمشق ٢٢٢/٤٣)، وقد ورد أن المفرج بن دغفل كان على الرملة سنة سبع وستين وثلاثمائة. ونستنتج من ذلك أن أبا الحسن التهامي وصل إلى الشام في حدود الثلث الأخير من القرن الرابع تقريبًا، واستقر في الرملة واتخذ منها دار إقامة وتزوج بها وتقلد فيها الخطابة (الوافي بالوفيات ٧٤/٢٢). ويدعم ذلك أن ابنه الذي رثاه مات صغيرًا (وفيات الأعيان ٢٨١/٣، تاريخ مدينة دمشق ٢٢٢/٤٣) وقد دفنه في مدينة الرملة، ويدل على ذلك قوله في رثائه له:

أَرَى الرَّمْلَةَ البيضاءَ بعدَكَ أَظْلَمَتْ
فدَهْرِيَ ليلٌ ليسَ يُفْضِي إلى فَجْرِ

وكان التهامي قد جاوز الأربعين عندما مات ابنه، يدل على ذلك قوله:

إلى اللهِ أَشْكُو مَا أُجِنُّ وإنَّنِي
فَقَدْتُكَ فَقْدَ الماءِ في البلدِ القَفْرِ

على حين جزتُ الأربعينَ مُصَوِّبًا
ولاحتْ نجومُ الشيبِ في ظُلَمِ الشَّعْرِ

وتجمع ـ أو تكاد ـ المصادر والروايات على أن وفاة التهامي كانت بعد تعرضه للسجن في دار البنود بمصر سنة ٤١٦هـ؛ لأنه كان يحمل كتبًا من حسان بن مفرج بن دغفل حاكم الرملة في ذلك الوقت. (العبر في أخبار من غبر ١٢٤/٣، معجم البلدان ٤١٩/٢، تاريخ مدينة دمشق ٢٢١/٢٣، كشف الظنون ٧٧١/١، وفيات الأعيان ٢٨١/٣، سير أعلام النبلاء ٣٨٢/١٧، معجم البلدان ٤١٩/٢، تاريخ مدينة دمشق ٢٢١/٢٣) وقد كثرت ثورات حسان هذا ضد الدولة الفاطمية، وذكر كارل بروكلمان عن حسان بن مفرج أنه خرج على السلطان الظاهر بيبرس (تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ٨٠/٢) وهذا الكلام خطأ لأن حاكم مصر في ذلك الوقت ـ العقد الثاني من القرن الخامس الهجري ـ كان الظاهر علي بن منصور الحاكم بأمر الله الفاطمي. بويع له بالخلافة يوم عيد النحر سنة ٤١١ هـ، ومات ليلة النصف من شعبان سنة ٤٢٧هـ. انظر: أخبار بني عبيد –محمد بن علي بن حماد – تحقيق: د. التهامي نقرة، د. عبد الحليم عويس (دار الصحوة – القاهرة – ١٤٠١هـ) ص١٠٣.
أرجح من كل ما سبق أن التهامي فقد ابنه أبا الفضل ـ الذي مات صغيرًا ـ أثناء إقامته بالشام في مدينة الرملة حيث دفن بها، وكان ذلك في أواخر القرن الرابع الهجري.

أبا الفضلِ طالَ الليلُ أم خانني صبري	فخَيِّلَ لي أنَّ الكواكبَ لا تسري
أَظْلَمَتْ أرى الرملةَ البيضاءَ بعدَكَ	فدَهْرِيَ ليلٌ ليس يُفْضِي إلى فَجْرِ
وما ذاكَ إلا أنَّ فيها وَدِيعَةً	أبى رَبُّهَا أنْ تُسْتَرَدَّ إلى الحَشْرِ[11]

ينادي التهامي ابنه أبا الفضل، متحيرًا مستفسرًا عما ألم به، هل طال ليله أم أن صبره قد خانه فلم يعد يحتمل الاصطبار على فقده؛ لذلك فالكواكب التي تجوب السماء يخيل إلى الشاعر أنها ساكنة لا تتحرك، وكأن الزمان هو أيضًا توقف عن سيره لموت الابن، ويرى مدينة الرملة التي يصفها بالبيضاء مظلمةً، ودهره ليلاً طويلاً لا يفضي إلى فجر أو صباح، وكأنه يوم من أيام الآخرة الذي يعد بعشرات السنين.
وهكذا نرى أن الحزن انعكس على الزمان والمكان، وهما فضاء حركة الشاعر وحياته وكل هذا بسب الوديعة / الابن الفقيد، التي لن تسترد إلا حين يوم الحشر.

(١)ديوان أبي الحسن التهامي ـ ص ٤٣.